قَصْدِيَّةُ الخِطَابِ القُرآنيّ والاحْتِمَالاتِ التَّأْوِيْلِيّة – ذُرِّيّةُ نُوْحٍ والطُّوْفَانِ أُنْمُوذَجًا

باسم البديرات*

فايز الذنيبات

ملخص

تسعى هذِهِ المُقاربةُ التَّأْويْليَّةُ إلى إِظْهارِ مَكْنُونَاتِ الخِطاْبِ القُرْآنِيّ الخاْصّ بِذُرِيَّةِ نُوْحٍ –عَلَيْهِ السَّلامُ– وَالطُّوْفَانِ؛ لأَنَّ هَذَيْنِ المَوْضُوْعَيْنِ حَظِيا بِتَرْكِيْزٍ وَاْفِرٍ فِي السّياقَاْتِ القُرْآنِيَّةِ، غَيْرَ أَنَّ مُعْظَمَ التَّأْوِيْلاتُ المُتعَلقَةُ بِهِمَا جَاْءَتْ مُتَأَثِّرةٌ بِأَدَبِيّاتِ أَهْلِ الكِتَابِ إِلى حَدٍّ كَبِيرٍ؛ نَظَرَاً لِوُجُوْدِ قِصَّةِ نُوْحٍ عندهم، وَمِنْ هُنَاْ نَجِدُ بَوْنَاً وَاْضِحَاً بَيْنَ الدّلاَلَةِ القَصْدِيَّةِ لِلْخِطَاْبِ القُرْآنِيّ وَبَيْنَ المَأْثُوْرِ المُتَدَاوَلِ حَوْلَ أَحْدَاْثِهِمَا. وَهَذَا الأَمْرُ كَاْن مُحَفِّزَاً كَبِيْرَاً لِاجْتهادٍ فِي إِيْجَاْدِ تَأْوِيْلٍ يَتَوَاءَمُ مَع السّيَاْقَاْتِ القُرْآنِيَّةِ كُلّها وَلا يَتَغَاْضَى عَنْ أَيّ دَلِيْلٍ مِنْهَا.

الكلمات المفتاحية: (قَصْديّةُ الدّلالةِ– ذُرِيّةُ نُوْحٍ– الطُّوْفَاَن– الاحْتِمَالات التَّأْوِلِيّة)

---

* **قسم اللغة العربيةن جامعة مؤتة.**

تاريخ تقديم البحث: 2023/2/7م. تاريخ قبول البحث: 9/4/ 2023م .

© جميع حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، المملكة الأردنية الهاشمية، 2024 م.

The Intentionality of the Qur'anic Discourse and Interpretive Possibilities –Noah's Offspring and the Flood as a Model

Basim Al-Bdiraat*

basem1976@mutah.edu.jo

Fayez Al-Thanibat

Abstract

The interpretive approach employed in the current study seeks to reveal the contents of the Qur'anic discourse petinent to the descendants of Noah - peace be upon Him – and the Flood, because these two topics received a great deal of focus in the Qur'anic contexts. Howevr, most of the interpretations related to these topics were influenced by the literature of the People of the Book due to the presence of Noah's story with them. Hence, we find a clear gap between the intentional significance of the Quranic discourse and the common tradition surrounding their events, and this matter was a great motivator to find an interpretation that is compatible with all Qur'anic contexts and that does not overlook any evidence of them.

Keywords: Intentionality of Significance - Offspring of Noah - The Flood- Interpretive Possibilities)

* Department of Arabic Language, Mutah University.
Received: 7/2/2023. Accepted: 4/9/2023.
© All rights reserved to Mutah University, Karak, The Hashemite Kingdom of Jordan, 2024.

مقدمة:

سعت هذه المقاربة التّأويليّة إلى إظهار مكنونات قصديّة الخطاب القرآنيّ الخاصّ بذريّة نوح –عليه السّلام– والطُّوفان؛

فمعظم ما جاء في المرويات حول المقصود بـ(ذريّة نوح والطُّوفان) متأثّر بمرويات لا علاقة لها بالسّياق في كثير من الأحيان، وبصورة أدق متأثّر بأدبيات أهل الكتاب؛ لذا نجد فوارق بيّنة بين الدّلالة المباشرة للخطاب القرآني وبين المأثور المتداول حول أحداثهما، ومن جهة ثانية نجد أنّ الأخذ بهذه المريات التّراثيّة – التي لا علاقة لها بالسّياق القرآنيّ– قد يصيب الأدلّة القرآنيّة – لاسيما الحديث عن ذريّة نوح – بشيء من التّعارض حاشا لله. وهذا الأمر كان محفّزاً كبيرًا لنا لمحاولة إيجاد تأويلات تتواءم مع السّياقات القرآنيّة كلّها، ولا تتغاضى عن أيّ دليل منها انتصارًا للمرويّات التّراثيّة.

ومن هنا كان (مبدأ القصديّة) المشهور لدى المدارس التّأويليّة الحديثة خيارًا منهجيًّا ملائمًا – من وجهة نظرنا – لتوجيه فكرة القصديّة في الخطاب القرآنيّ الخاصّ بذريّة نوح والطّوفان، إلى جانب الاستعانة بالتّوجيه السّياقيّ العام المتعلّق بسياق الموضوع في القرآن حصرًا، وقد انطلقت هذه المقاربة من جملة من الأسئلة الاستدلاليّة وحاولت الإجابة عنها وفقًا للطّاقة الدّلاليّة للخطاب، ومن هذه الأسئلة: لماذا يتقصّد الخطاب القرآنيّ استعمال التّعبير(ذريّة من حملنا مع نوح) في موضعين منه؟ هل هذا التّعبير يفيد حقيقةً أنّ المحمولين معه هم ذريّته فقط؟ ألم يأمر الله نبيّه نوح بأنْ يحمل معه في السّفينة أهله (الذين) آمنوا؟ ألم يثبت الله أنّ (الذين) آمنوا مع نوح ذريةً؟ كيف نبرهن على أنّ المقصود من (ذريّة من حملنا مع نوح) هم أبناء نوح الثّلاثة؟ هل كان لنوح ذريّة ذكور ناجون معه؟ فإذا كانت الإجابة: لا، فكيف سنوفّق بينها وبين قوله تعالى: ﴿وجعلنا ذريّته هم البّاقين﴾ (الصافات: 76)، من هنا سعت هذه المقاربة إلى الإجابة عن هذه الأسئلة وما يتعلّق بها واستبعاد أيّ فرضيّة للتّعارض.

إنّ هذه المقاربة لا تنهج نهج المقاربات التّداوليّة بنمطها المعتاد، لخصوصيّة النّصّ القرآنيّ، كما أنّ بعضًا من أدوات التّأويل لا تخدم الفكرة التي نسعى إلى إثباتها، وإنّما ارتأينا أنْ يكون التّأويل قصديًّا متعلقًا بالخطاب وإمكانيّاته الدّلاليّة وجميع احتمالاته التّأويليّة، ومن هنا كانت هذه الدّراسة من مدخل نظريّ، وفصلين، تناول أولهما: جدليّة ذريّة نوح وذريّة المحمولين معه، وفيه مباحث، في حين تناول ثانيهما: موضوع أرض قوم نوح والطُّوفان، وفيه مباحث، وقد انتهت المقاربة إلى عدد

من الاستدلالات التّأويليّة التي تنسجم مع سياق الآيات بصورة قد تكون أكثر إقناعاً من غيرها من الآراء.

وفي حدود استقرائنا فإنّ معظم ما تناول هذه المسألة لم يأتِ في دراسة مستقلّة، وإنّما جاءت مجرّد آراء متناثرة في بطون كتب التّراث، وبالذّات في التّفاسير. وبعض الدّراسات الحديثة التي سلطت الضّوء على المقصديّة والسّياق وبيان دورهما في فهم الخطاب القرآنيّ، منها دراسة: (الشّوربجيّ، السيّد عبد الحليم، 2021). المقصديّة والسّياق والبُعد التّداوليّ في فهم الخطاب القرآنيّ، مجلة حوليّة كليّة اللغة العربيّة، جرجا، م25، ع9. ودراسة: (العموش، خلود، 2008). الخطاب القرآنيّ: دراسة في العلاقة بين النّص والسّـــــياق، عالم الكتب الحديث. ودراسة: (بودرع، عبد الرحمن، 2006). منهج السّياق وأثره في فهم النّص، منشورات وزارة الأوقاف، قطر. ودراسة: (تاج الدّين، المصطفى، 1999). النّص القرآنيّ ومشكل التّأويل، إسلاميّة المعرفة، ع14. وغيرها من الدّراسات الأخرى التي سيرد ذكرها في معالجات البحث، وممّا يميّز هذه الدّراسة عن سابقاتها أنّها تناولت العلاقة العاضدة بين القصديّة والسّياق في موضع محدّد في الخطاب القرآنيّ وهو قصّة نوح عليه السّلام.

أمّا فيما يخصّ نتائج هذه الدّراسة فإنّ بعضًا منها قد يخالف معهود ما عليه بعض الموروث التّفسيريّ إلى حدّ ما، كما أنّ بعضها الآخر يتوافق معه، ونحن نتبنى رأي الشّيخ محمد عبده الذي نقله القاسميّ في تفسيره إذ يقول:" وقد سُئل مفتي مصر الإمام الشّيخ محمد عبده عن تحقيق عموم الطُّوفان، وعموم رسالة نوح، فأجاب بما صورته: أما القرآن الكريم فلم يرد فيه نصّ قاطع على عموم الطُّوفان، ولا عموم رسالة نوح عليه السّلام، وما ورد من الأحاديث، على فرض صحة سنده، فهو آحاد لا يوجب اليقين، والمطلوب في تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظّنّ، إذا عدّ اعتقادها من عقائد الدّين وأمّا المؤرّخ، ومريد الاطلاع، فله أنْ يحصل من الظّنّ ما ترجّحه عنده ثقته بالرّاوي أو المؤرّخ، أو صاحب الرأي، وما يذكره المؤرخون والمفسّرون في هذه المسألة لا يخرج عن حدّ الثّقة بالرّواية، أو عدم الثّقة بها، ولا يتخذ دليلًا قطعيًّا على معتقد دينيّ"(القاسميّ،1418، ج6، ص104).

تمهيد: آلية التّأويل القصديّ في الخطاب القرآنيّ:

جاء في المعاجم اللغويّة أنّ الْقَاف وَالصَّاد وَالدَّال أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ، والقَصْد في اللغة يدلّ على معانٍ منها: إِتْيَانِ شَيْءٍ وَأَمِّهِ. فَالْأَصْلُ: قَصَدْتُهُ قَصْدًا وَمَقْصَدًا. وَمِنَ الْبَابِ: أَقْصَدَهُ السَّهْمُ، إِذَا أَصَابَهُ فَقُتِلَ مَكَانَهُ، وَكَأَنَّهُ قِيلَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَحِدْ عَنْهُ. ومنه قول الْأَعْشَى:

فَأَقْصَدَهَا سَهْمِي وَقَدْ كَانَ قَبْلَهَا لِأَمْثَالِهَا مِنْ نِسْوَةِ الْحَيِّ قَانِصَا

ومنه (الْقَاصِدُ) أي: الْقَرِيبُ، يُقَالُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمَاءِ لَيْلَةٌ (قَاصِدَةٌ) أَيْ هَيِّنَةُ السَّيْرِ لَا تَعَبَ فِيهَا وَلَا بُطْءَ(الرّازي،1979). فالمعنى اللغويّ الأكثر استعمالاً للجدر (قصد) يدلّ على الوصول التّام إلى المراد والتّمكّن منه سواء أكان القصد في أمر ماديّ أو معنويّ.

أمّا اصطلاحاً فقد أصبح القَصْد في الدّراسات اللغويّة الحديثة مفهومًا إجرائيًّا يلقى اهتمامًا كبيرًا حاليًّا في النظريّة التّأويليّة المعاصرة، واللسانيّات التّداوليّة، فالنّصّ موئل لتقاطعات عديدة بين المتكلم، وبنية النّص أو الخطاب، والسّامع، فيكوّن لدينا قصد المتكلّم، والقصد الذي فهمه السّامع من النّص، إضافة لما تحويه بنية النّص من قصد وضعهُ المتكلّم في نصّهِ، صراحةً أو تلميحاً، مما يؤكّد مدى العلاقة الرّابطة بين الفعل الكلاميّ والقصديّة،"فكلّ فعل كلاميّ يقوم على مفهوم القصديّة" (صحراويّ، ص44). لذا يرى (ليفن) أنّ وراء كل نصّ دعوة من المنشىء إلى المتلقي كي يشاركه تجربته التي تخيلها أو عاشها وعبّر عنها من خلال عمله (النّصّ)" (الزّليطنيّ، 1434، 72). فكانت هذه الجوانب من أهمّ ما عُني به العلماء في الدّرس الحديث متجاوزين التصورات الشّكليّة التي قصرت النّظر على النّصّ فحسب"(السّيفانيّ، وعبد العزيز، 2020، 915-916).

والقصد من القول "هو الذي يورّث استلزاماته الصّبغة السّياقية أو المقاميّة" (عبد الرحمن، 2012، 103) ذلك أنّنا نحتاج في استخراجها إلى افتراض أنّ القائل يتبع قواعد التّخاطب المشتركة، والقصد يتمثّل في سعي المتكلم إبلاغ المخاطب أمرًا يجعله يتعرّف على قصده، فالقصديّة هي بمثابة "قوة الدّفع" للخطاب اللغويّ بشكل عامّ، مهما كان تنوّعها، ومهما كانت واضحة المعالم، أو خفيّة المراسم، شريطة أنْ تحتوي على قرائن تعاقديّة التزاميّة لغويّة بين طرفي الخطاب(أدراوي، 2012)؛ لأنّ الخطاب في الموسوعة اللغويّة "هو علاقة لغويّة تتجسّد بالكتابة أو المنطوق، وهي وجهان: أحدهما يمثّل المستوى السّطحيّ للنّص بواسطة الدّوال، وثانيهما المستوى العميق للنّص الذي يمثل المدلولات"(لحلوحي، 202، 222).

وأصبح من الدّارج لدى الباحثين أنّ المناهج اللّسانيّة الحديثة يمكن أنْ تُسهمَ في فهم نصوص القرآن الكريم فهما متكاملاً يؤدّي إلى وضع النّصّ القرآنيّ في إطاره العامّ، فارتبط القصد بالسّياق ارتباطاً وثيقا، كون السّياق إطارا عاما تنتظم فيه عناصر النّصّ ووَحداتُه اللّغويّة، ومقياسٌ تتّصل بوَساطَتِه الجُمل فيما بينها وتترابط، وبيئةٌ لغويّة وتداوليّة ترعى مجموع العناصر المعرفيّة التي يقدّمها النّصّ للقارئ (بودرع، 2006)، فدراسة السّياق أساس متين للوصول إلى مبدأ القصديّة في تأويل القرآن الذي يُعنى بتحليل الخطاب تحليلًا لا يُغْفل الدّلالة المباشرة للكلمة ليحقق القصديّة التي عادة ما "تتمخّض عنها التّواصليّة والفائدة المقصودة" (شويحط، ومرعي، 2016)، إلا إذا تعذّر حملها على المعنى الحقيقيّ، وكان ثمة مانع سياقيّ يمنع ذلك مع وجود قرائن. كما تعنى بتأويل التّركيب اللغويّ كما هو دون محاولة الالتفاف عليه خدمةً لسياقات خارجة عنه، فالقصديّة تحتّم تحليل التّركيب اللغويّ واستخلاص دلالته المباشرة كما هو؛ انتصارًا لخصوصية التّعبير القصديّ للخطاب الرّبانيّ، فقصديّة التّركيب القرآنيّ تقتضي التّعامل مع دقائقه الحسّاسة كما هي، كما تقتضي حصر كلّ الاحتمالات التّأويليّة التي يمنحها هذا التّركيب منفردًا، مع جعل السّياق اللغويّ وسياق الموضوع وسياق الموقف عاملًا حاسمًا في التّرجيح.

إن التّدبر اللغويّ للخطاب القرآنيّ ينطلق من افتراضات تأويليّة (قواعد)–تفاوت الالتزام بها تبعًا لأسباب مختلفة، ومن هذه القواعد: أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضًا، فما أُجْمِل في موضع تمّ تفصيله في موضع آخر، ومنها : لا بدّ عند تحليل آية أنْ يتم الإلمام بسياق موضوعها –إذا تكرّر– في غيرها من السّور جميعًا، ومعناه دراسة الآية أو الآيات التي يجمعها موضوع واحد، سواء أكان الموضوع عامّا كالقَصص القرآنيّ أو الأمثال أو الحِكم الفقهيّة، أم كان خاصّا نحو قصّة خاصّة بنبي من الأنبياء أو حُكم من الأحكام أو غير ذلك، وتتبع مواقعها في القرآن الكريم كلّه(بودرع، 2006). فالدّلالة العامّة تتحصل من مجموع ما تكرّر بشكل عام، ومنها مراعاة قدسيّة النّص القرآنيّ من التّأويلات الاعتباطيّة التي يتم إسقاطها دون قرينة حقيقية، وهذا الافتراض يشمل النّصوص اللغويّة كافّة؛ لذا يبيّن (إيكو) أنّ التّخمينات التي يُصدرها المؤول على النّصّ لا تُقبل إلا إذا تلاءمت مع انسجام النّص الذي سيُنكِر التّخمينات الاعتباطيّة (تاج الدّين، 1999). ويُضاف إلى الافتراضات السّابقة أيضاً وجوب التّخلّص من الدّلالة المجازيّة ما أمكن إذا كان للدّلالة الحقيقيّة مقبوليّة، ومنها العناية بسياق الموقف وسياق النّص معًا عبر طرح الأسئلة الافتراضيّة المسبقة، ومنها لواحق السّياق وما يكون لها من دعائم للمعنى تعين حسم المحذوف الذي يمكن تقديره من السّياق، فالسّياق والقرائن هي "الدّالة على مراد المتكلّم من كلامه، وهي المرشدة إلى بيان

المجملات فاضبط هذه القاعدة فإنها مفيدة في مواضع لا تحصى" (الصنعاني، 1409، 312)، ويؤكّد ذلك ابن القيم بقوله: "السّياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدّلالة، وهذا من أعظم القرائن الدّالة على مراد المتكلّم، فمن أهمله غلط في نظره وغالط" (ابن القيم، د.ت، ج9، ص4).

الفصل الأول: قصديّة نسبة الذّريّة:

يناقش هذا المبحث الدّلالة القصديّة للخطاب القرآنيّ بما يخصّ موضوع ذريّة نوح في القرآن؛ إذ وقعت فيه استشكالات نتجت – في بعض الأحيان – عن طبيعة التّعبير القرآنيّ المتوزّع على سياقات متعددة منه، فالقرآن في موضوع النّسب والذريّة تحديدًا له أصول عامة لا يخرج عنها؛ فهو حين يخاطب البشر جميعًا لا يقول لهم: يا أبناء من كانوا مع آدم، أو يقول لهم: يا أبناء قابيل – مثلًا – وذلك لأسباب مهمة منها: أنّ القول الافتراضيّ (يا أبناء من كانوا مع آدم) يقتضي تفسيرًا مخالفًا وهو: أنّ ثمّة بشرًا كانوا معاصرين لآدم، وانحدرت سلالتنا من هؤلاء الموجودين زمن آدم، كما قد يقتضي تفسيرًا ثانيًا أقلَّ حظًّا من التّفسير الأول وهو: أنّه قصد أبناء آدم الموجودين معه وقتذاك، وهذا التّفسير يقتضي استنتاجًا لازمًا وهو: أنّ آدم –عليه السلام– لا مزية له وإنما الفضل لأبنائه، وفي هذا تقليل من أصل النسب (آدم) وتفضيل للفروع عليه –حاشا لله، وهذا في الحقيقة لم يحدث، ومثل هذا متواتر جدًا في صريح القرآن، فعلى سبيل المثال: لماذا خاطب القرآن اليهود عبر نسبتهم إلى (إسرائيل) وليس إبراهيم؟ فلا أحد يستطيع أنْ يجحد فضل إبراهيم –عليه السّلام– الذي وصفه لنا القرآن بأنّه أُمَّة، لكن القرآن لو خاطب اليهود بالنسب لإبراهيم لم يكن خطابه دقيقًا حاشا لله؛ ذلك أنّ نسل إبراهيم لم يتوقف على بني إسرائيل فحسب، بل امتدّ إلى أبناء إسماعيل كذلك (الطبري، د.ت)، فاشتراك ذريّة إبراهيم عبر فرعين مختلفين، واختصاص اليهود بالخطاب المباشر جعل القرآن يحصر نسبتهم في إسرائيل؛ حتى لا تعمّ الدّلالة الفرع الثاني المستثنى من الخطاب، وهذا أمر بدهيّ ولا يحتاج إلى أدلة أكثر على الرغم من كثرة أدلته.

وانطلاقًا مما تقدّم نجد القرآن في موضعين منه ينسب بني إسرائيل نسبًا عرقيًا أبعد من إبراهيم وأقرب من آدم يعود إلى مرحلة نوح؛ وذلك لأسباب تخص انسجام الخطاب ليس إلا (الذنيبات، 2017). فقد خاطبهم القرآن بالنّسب لذريّة المحمولين مع نوح في سورة الإسراء أو (سورة بني إسرائيل)، إذ يقول تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا، ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء:2–3)، وهنا تبرز استفسارات منها: لماذا لم ينسبهم لنوح مباشرة؟ هل كان مع نوح أناس غير ذريته في السفينة؟ ألا تقتضي الدّقة في

الخطاب أنْ ينسبهم لنوح مباشرةً؛ لأنّ المحمولين مع نوح ليسوا ذريته فقط؟ بل ثمة محمولون آخرون من المؤمنين معه! وهنا ستدخل احتماليّة الدّلالة في اتجاهات أخرى، وهذا الأمر إن لم تدعمه سياقات أخرى تؤكد حقيقة انتسابهم لنوح مباشرةً سيكون احتمال نسبتهم لغير نوح هو الأوفر حظًّا؛ لأنّ القرآن لا يمكن أنْ يتجاهل فضل نوح ويُعلي من قدر المحمولين معه، ويزيد من احتماليّة هذا الرأي إيماننا بقصديّة الخطاب القرآنيّ ودقته اللامتناهية، وحتى لا نفقد الصلة مع الأدلّة القرآنيّة يُطالعنا القرآن للمرة الثّانية في سورة مريم بهذا الخطاب، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾ (مريم: 58). وهنا يجدر بنا أنْ نسأل: ما سرّ القصديّة الخطابيّة فيما يخصّ نسبة ذريّة بعض الأنبياء إليهم مباشرة، وإلى المحمولين مع نوح عليه السّلام في زمنه، ولم ينسب الذريّة إليه مباشرة كما وردت مع آدم وإبراهيم وإسرائيل عليهم السّلام؟ لماذا تماسكت سلسلة ذراري الأنبياء من آدم لكنها عند نوح لم تتصل به مباشرةً، بل صُرِفت وجهة المحمولين معه؟ أم أنّ المحمولين معه هم أبناؤه فقط، ووفقًا لهذا الافتراض ستعود السّلسلة إلى التّماسك إذا تجاوزنا عدم حرفية التّعبير وقصديته؟ على الرغم من أنّ هذا الافتراض تنقضه الأدلّة القرآنيّة كما سيأتي؛ لأنه ليس عبثًا أن يتم التّغاضي عن النّسب إلى نوح مباشرةً، إنّ التّفصيل في هذا التّعبير يتطلب أنْ يتمّ تسليط الضّوء على جميع السّياقات التي ورد فيها نَسَب الذريّة لنوح، كما يتطلب أيضًا تسليط الضّوء على (المحمولينَ معه). وهذا ما سنعالجه بالتّحليل في المباحث الآتية:

أولاً: قصديّة ذريّة نوح وذريّة المحمولين معه.

إنّ القرآن لم يخصص أنّ النّاجين في السّفينة هم نوح وأبناؤه فقط، بل أكّد أنّ ثمّة ناجين آخرين مع نوح، فقد وُصِفوا من حيث العدد كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (هود:40). ففي هذه الآية دليل على أنّ معه مؤمنين ناجين، وأنّ هؤلاء النّاجين كانوا قلّةً، والقلّة هنا قد تكون نسبيّةً مقارنةً مع عدد قومه، ونستطيع أن ندعم هذا التّأويل بدليل من السّياق نفسه، قال تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ (هود:48). فهذه الآية تؤكد وجود (أمم) مع نوح، كما نجد في صريح الآية أمرين: الأول منهما: (وعلى أمم ممّن معك) كان مع نوح آخرون ليسوا من نسله، وقد كُتب لنسلهم البقاء وقد تحوّلت ذراريهم إلى أمم لاحقًا. الثّاني: أنّ أنباء هذا الحدث لم تكن معلومةً –كما يجب– قبل نزول هذه الآيات من قبل المسلمين الذين قد تصلهم الأخبار من أهل الكتاب وقتذاك، وهذا بدوره سيتناقض مع بعض المرويّات والتّأويلات الخاصّة بذريّة

نوح، مع أنّ بعض هذه المرويّات يتعارض مع دقائق النّص القرآنيّ، فثمة آراء تأويليّة تحاول التّخلّص من فكرة ركوب مؤمنين مع نوح من غير أهله؛ فمن ذلك مثلًا:" وقَالَ بَعْضُهُمْ: قوله: (وَأَهْلَكَ) أراد أهله خاصة، ثم استثنى من سبق عليه القول، وهو ابنه وزوجته وهما من أهله، ألا ترى أنّه ذكر من بعد من آمن معه وهو قوله: (وَمَن آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ) أي: احمل أهلك الذين آمنوا معك إلا من سبق عليه القول من أهلك وغيره أنّه في الهالكين، أو يقول: إلا من سبق عليه القول أنّه لا يؤمن، فهذا يدل أنّ في أهله من كان ظالمًا كافرًا حيث استثني من أهله" (الماتريدي، 2005م، ج6، ص46).

وجاء في تفسير الطّبريّ كذلك "والنّاس كلّهم ذرّيّة من أنجى الله في تلك السّفينة، وذُكر لنا أنّه ما نجا فيها يومئذ غير نوح وثلاثة بنين له، وامرأته وثلاث نسوة، وهم: سام، وحام، ويافث"(الطّبريّ، 1964، ج7، ص354)، مع أنّ أصل الاستدلال الحقيقيّ يقتضي أنّه لا ينبغي التّخصيص دون دليل، فلو تتبعنا مراحل التّخصيص التي سلكناها لوجدنا أنّنا ربّما نغالط دلالة النّصّ؛ إذ حكمنا على أنّ الناجين مع نوح هم أبناؤه فقط دون دليل، كما حكمنا أنّ أبناءه هم ذكور، وذلك دون دليل أيضًا، يقول البغوي:"(وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ)، أي: ومن ذريّة من حملنا مع نوح في السّفينة، يريد إبراهيم؛ لأنّه ولد من سام بن نوح، (وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ) يريد إسماعيل وإسحاق ويعقوب" (البغويّ،1420، ج5، ص293).

إنّ عددًا غير قليل من الآيات يؤكد لنا صراحةً وجود مؤمنين مع نوح، ولا ينبغي صرف النّظر عن هذا، كما لا ينبغي اعتقاد أنّ المؤمنين ركبوا السّفينة لكنهم ماتوا جميعًا عند الهبوط فلم ينجوا؛ فكيف يخبرنا أنّه أنجاهم، ثم ندّعي أنّهم لم ينجوا! قال تعالى:﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ (يونس:73)، فكيف جعلهم خلائف ونحن ندّعي أنّ نسلهم لم يمتدّ وأنّهم انقرضوا، إنّ هذه الاحتمالات التأويليّة كلّها مخالفة للأدلّة المتقدّمة، ومما جاء في إثبات وجود أتباع لنوح غير أهله قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ (الأعراف: 64)، وقوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ (هود: 36)، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ (الشعراء:111). إنّ هذه الآيات –وغيرها– تثبت أنّ لنوح أتباعًا مؤمنين من غير أهله وأنّهم ركبوا السفينة معه ونجوا، كما كان مع نوح نفر من أهله ناجين.

ثانيًا: قصديّة أهل نوح

سنتوقف في هذا المبحث عند التّأويلات القصديّة التي حملتها عبارة (أهل نوح) وما رافقها من التّراكيب اللغويّة المبيّنة لطبيعة الأهلية، نحو (إنّه عمل غير صالح) في وصف الابن كما قيل، وسنقف كذلك عند إثبات وجود ذريّة لنوح أو نفيها من خلال الأدلّة القرآنيّة والسّياقات التي وردت فيها فقط، وسيكون العرض بحثاً عن جواب لهذين السّؤالين: الأول: ما دلالة قوله تعالى (إنّه عمل غير صالح) عند حديثه عن ابنه؟ والثّاني: هل كان لنوح ذريّة ذكور وذرية إناث؟

أ- أهليّة ابن نوح وقصديّة (إنّه عمل غير صالح):

مصطلح (أهل الرجل) أو (أهل بيته) يذهب إلى دلالة العائلة من الأزواج والأبناء الموافقين للرجل في عقيدته، فمن خالف في معتقده يفقد هذه الميزة، فلم يعد من أهل بيته، قال تعالى: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ (المؤمنون:27). وقال تعالى: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ (هود:40). وقال تعالى في إثبات أن لنوح أهلًا: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ (هود:45)، فهذه الآية تحديدًا هي التي ربّما توحي لنا أنّ أهل بيت الرجل يجب أنْ يكونوا موافقين له عقائديًّا، فنوح يؤكد فرضيتين هما: أنّ هذا الولد هو ابن له أولًا، ثم أنّ هذا الابن هو من أهله ثانيًا، ليعطي نتيجةً أنّ الأهليّة هي مرحلة خاصة من الانتماء غير البنوّة، فجاء الردّ الإلهيّ في إثبات الفرضيّة الأولى ونفي الثّانية، وقد تقدّم إثبات الفرضيّة الأولى في قوله تعالى:﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ﴾ (هود:42).وجاء نفي الفرضية الثّانية في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ (هود:46). "وهنا تُطلعنا الآيات أنّ هذا الولد كان منافقًا يخفي عن أبيه الكفر"(الفرّاء، 2006، ج2، ص974)، وقد فقد أهليّته نتيجةً لهذه الصّفة.

ومن جانب آخر فإنّ التّركيب اللغويّ لقوله تعالى: (إنّه عمل غير صالح) لا يبدو دالًا حرفيًّا على توصيف الابن أو الإخبار عنه؛ فالذي سأله نوح عبر أسلوب الخبر هو إنقاذ ذات ابنه، ولكن بعد رفض الطّلب المُضْمَر وتقديم التّعليل (ليس من أهلك) جاء الخطاب الربانيّ (إنّه عمل غير صالح)، وهذا التّعبير يبدو أنّه توصيف للعمل نفسه (طلب الإنقاذ لابنه) وليس توصيفًا لذات الابن، فالابن المطلوب إنقاذه مخالف لشروط النّجاة؛ لأنّ أصناف النّاجين هي: الأهل المؤمنون، والأتباع المؤمنون، ومن هنا فإنّ محاولة إنقاذ الابن –بالطلب– هي عملٌ غير صالح؛ وذلك لافتقادها العدل؛

فإذا علمنا أنّ هذا الشّخص هو أقرب الناس جميعًا للنبيّ، وتربّى على يديه ولم يؤمن، فإنه من العدل أن يكون آخر من يستحق الإنقاذ من جميع مخالفي الشروط.

إنّه لا يستقيم من جهة تخاطبيّة أن يوصف إنسان بأنّه عمل- مهما كانت صفة العمل- ولا يوجد لهذا التّركيب نظير في لغة القرآن ليُستأنس به، ولكن العمل أو الفعل هو المنوط بهذا الوصف أو الإخبار؛ ولأن سياق الآيات الإخباريّ قد خلا ظاهريًّا من أيّ فعل يمكن أن يوصف بهذه الصّفة، فإنه بات لزمًا البحث في سياق الآيات عن فعل مقدر شريطة وجود قرائن تدعمه، وشريطة استحقاقه صفة أنّه(غير صالح) بناءً على فهمنا لغايات الصّلاح والفساد على امتداد القرآن.

إنّ طبيعة الخطاب في هذا السّياق تقتضي وجود حذف؛ فطبيعة سياق الموقف في لحظة غرق الابن لا تسمح بمزيد من التّطويل، وهذه من مبررات الحذف في اللغة وتُسمى (ضيق المقام) (الصعيدي،2005)، ومنه قوله تعالى: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (الذاريات: 29)، أي أنا. ونحن بدورنا نقدّر أنّ صيغة إخبار نوح كانت صيغة سؤال وطلب من الله لإنقاذ ابنه، والقرينة اللغويّة على هذا في متابعة السياق في قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ به علم﴾ (هود: 46). وهنا نلمس أن نوحًا سأل وتمّ نهيه عن هذا السؤال؛ لأن مجرّد سؤاله فيه تجاوز للنهي المتقدم بعدم المخاطبة في الذين ظلموا، وهذا يقتضي سلفًا تقدير خطاب نوح على هيئة السّؤال، ويؤكد ذلك ما جاء في اعتذار نوح لاحقًا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾، فخطاب نوح كان متضمنًا سؤالًا (طلبا) مضمرًا.

ونحن بدورنا نحاول صياغة سؤال نوح المفترض بناءً على الرد، كأن يكون التقدير (رب أسألك استنقاذ ابني لأنه من أهلي، وأنت وعدتني بنجاتهم)، فكان الجواب متضمنًا للسؤال المحذوف: إنّه ليس من أهلك، وهنا انتهى الحديث عن الابن كليًّا، وجاء الجواب الثاني فيه تأنيب لنوح -عليه السلام- بسبب محاولته استنقاذ شخص مخالف للشروط بحجة أنه ابنه فقط، وفي هذا الجزء من السّياق وقع الحذف، وربّما التبسُ عائديّة الضّمير في قوله (إنّه عمل) بسبب تتابع ضميري (الهاء) المتصلين اللذين لا يعودان على مرجع واحد، كما نجد في قوله: (إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح)، فالضّمير الأول (إنّه) يعود على الابن دون أدنى شك، فلو جعلنا عائد الضّمير الثاني (إنّه) على الابن ربّما ستقع موانع دلاليّة، وستختفي قصديّة الخطاب لصالح تأويلات عموميّة لا تطابق الخطاب القرآني، وهذا في حدّ ذاته أكبر مانع سياقي من جعل الضّمير عائدًا على الابن، وثمّة مانع آخر وهو: أن الابن لا يمكن أن يتمّ الإخبار عنه بأنّه عمل غير صالح، وإنّما الذي يستحق هذا الوصف هو فعل ما أو عمل ما، وهنا يصبح لزامًا تقدير فعل من وحي السّياق يكون هذا الفعل

مستحقًا لصفة (إنهّ عمل غير صالح) وبما أن نوحًا تعرّض للتّأنيب على محاولة استنقاذ ابنه، واعتذر وطلب الرحمة والمغفرة، فإننا لا نجد غضاضةً في تقدير أن سؤاله المتضمِّن (استنقاذ) ابنه هو عمل غير صالح؛ فلو أن ضمير(الهاء) اتصل بكلمة عمل بدلًا من اتصاله بـ (إنّ) لانتفى أي اعتراض وزال أي لبس في الخطاب، إذ يصبح التقدير(إن عمله غير صالح)، لكن القصديّة في الخطاب القرآنيّ حتّمت اتصال الهاء بـ(إن) لكيلا تكون الجملة التّالية تفسيرًا للأولى؛ بل لأن الجملة التالية (إنّه عمل) هي جملة استئنافية وهي خبريّة تفيد التّقريع، (إنّ هذا العمل الذي تحاوله عمل غير صالح).

ومن جهة أخرى يدلنا السّياق على أن نوحًا قد تفاجأ من كون ابنه كافرًا، وكأنه لم يتوقع هذا ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وربّما كان استغراب نوح نابعًا من معنى كلمة (الأهل) القائمة على رابطة الدّم، وأراد الله أن يصحح له هذا، فدلالة مصطلح الأهليّة عبر ربطه بالإيمان مضافًا إلى رابطة الدّم، لذلك اختتمت الآية بقوله:(إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)، وقد ميّز الإمام الشعراوي في هذا المقام بين نوعين من أنواع البنوّة بما يخصّ الأنبياء، الأول منها بُنوّة في المنهج، والثاني بُنوّة في النّسب، فقد كان ابنه نسباً كافراً، ولم يتمكّن من هدايته، فجاء الخطاب: (يانوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)، فالنسب هنا عمل وطاعة، فابنك الحق مَنْ سار على منهجك، وإنْ لم يكُنْ من دمك (الشعراوي، 1418). في حين أنّ السّياق لم يطلعنا على تفاجئه من كفر زوجته ولحاق العذاب بها، وهو ما يعطينا دليلًا على أنّه كان يعلم ذلك أو يتوقعه منها.

ومن هنا لم تكن مخاطبة نوح في استنقاذ ابنه متجاوزةً للنهي الرّبانيّ المتقدّم، ولكنها ربّما كانت عن غير سابق علم من نوح بكفر ابنه (مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ)، لذلك نجد اعتذارًا من نوح يشي بشعور بالذنب وطلب للمغفرة، ولا يكون هذان الأمران إلا إذا سُبقا بشيء من الخروج عن المسموح به: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾(هود:47). وهنا يترجّح لدينا أن عائديّة الضّمير المتّصل (إنّه عمل) لا تعود على ذات ابن نوح؛ بل تعود على مخاطبة نوح ربّه في استنقاذه، وقد سبق له من الله تقديم النّهي عنها.

ب- قصديّة الخطاب المتعلّق بذريّة نوح:

سيقف هذا المنحى عند إثبات وجود ذرية لنوح أو نفيه من خلال تتبع دلالات الخطاب القرآنيّ بالدّرجة الأولى، وسيكون العرض بحثا عن جواب لهذا السؤال: هل كان لنوح ذريّة ذكور وذريّة

إناث؟ إذا استبعدنا زوجه وابنه، فمن هم الباقون من أهله المذكورين في قوله تعالى: ﴿احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ (هود:40)؟

لقد عمم الخطاب القرآنيّ القصديّة المتعلّقة بذريّة نوح بلفظ (الأهل) التي تحتمل الدّلالة على الزّوجات والذريّة، كما تحتمل أن تدلّ على الزّوجات فقط، وتحتمل أن تدلّ على الذّريّة فقط، وهذه الذّريّة قد تكون ذكورًا أو إناثًا، وقد تكون من الجنسين معا، وقد تنوعت دلالات مصطلح الأهل في القرآن الكريم في غير موضع تبعا لتغيّر السّياق، فأهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم هن أزواجه بصورة واضحة في قوله تعالى:﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب:32-33). وآل بيت إبراهيم حين جاءت البشرى بإسحاق في قوله تعالى:﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾(هود: 73) فالخطاب موجه لزوج إبراهيم الأولى حصريًّا بقوله: (أتعجبين)، أمّا زوجه الثّانية فكانت في مكة، وإسحق لم يولد بعد (الطبري، د.ت). ومثل هذا أيضا ما جاء في قصة امرأة العزيز حين خاطبت سيّدها: ﴿قَالَت مَا جَزَآءُ مَن أَرَادَ بِأَهلِكَ سوءًا﴾، وقد تكون دلالة مصطلح (الأهل) محصورة في الذّريّة من الإناث فقط، كما جاء في الخطاب الموجه للوط –عليه السّلام– قال تعالى: ﴿فَأَسرِ بِأَهلِكَ بِقِطع مِّنَ ٱلَّيلِ﴾ (الحجر:65).

نخلص من هذا أنّ لنوح أهلًا، وأنّ امرأته وابنه ليسا من أهله عقائديًّا، لكنّ الأكيد أنّ بعض أهله قد نجوا، وإلى هذا الحد لا يوجد إشكال مع الأدلة، ولكن يبدأ الإشكال عند ذكر الذّراري اللاحقة بعد نوح؛ إذ يطالعنا الخطاب القرآنيّ بهذه الحقائق: أنّه يصف انتساب بني إسرائيل – وهم من ذريّة إبراهيم – إلى ذريّة المحمولين مع نوح لا ذريّة نوح نفسه، وذلك في موضعين من القرآن: الأول منهما في سورة الإسراء إذ يقول تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا، ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء:2-3)، فبنو إسرائيل هنا هم ذريّة للمحمولين مع نوح، مع أن بني إسرائيل هم امتداد لإبراهيم! ولو كانوا من ذريّة نوح لماذا يطالعنا القرآن بهذه الصيغة التّعبيريّة التي تحتمل أن يكون بنو إسرائيل من ذريّة المؤمنين المحمولين مع نوح؟ ولو قال قائل: إن المحمولين مع نوح هم أبناؤه فقط (القيرواني، 2004)، فهم ذريّة أبناء نوح، وذريّة أبناء نوح هم ذريّة لنوح في المحصلة، ولا ضرورة إذن لوصفهم بقوله: (من حملنا مع نوح)، كذلك لو كان المقصود بـ (ذريّة من حملنا مع نوح) أبناء نوح تحديدًا لكنّا نسبنا للقرآن عدم الدّقة –حاشاه؛ لأنّ ثمّة مؤمنين آخرين ركبوا السّفينة مع نوح ونجوا، فكيف يمكننا أنْ نجزم أنّ القرآن قصد أبناء نوح الذّكور من بين المحمولين على السّفينة فقط؟ إنّنا نجد النّقيض تمامًا؛ فما دام أنّ

القرآن قد خصّ أنّ بني إسرائيل هم نسل المحمولين مع نوح فهو يقصد أنّهم من غير أبناء نوح؛ فلو كانت الحقيقة غير ذلك لنسبهم لنوح مباشرةً، ثم إنّ القرآن لم يطلعنا على أيّ حقيقة تخصّ ذريّة نوح سوى غرق ابنه، فلا فضل لأبنائه أن يطالهم النّسب ويُتجاهل أبوهم نوح! ثم أيّ دقة يمكن أن نتوخاها من التّركيب بحصر النّسب بذريّة المحمولين مع نوح وهو يقصد ذرية نوح؟ وانطلاقًا من مبدأ القصديّة لا يمكن تجاهل خبايا التّعبير في قوله(ذريّة من حملنا مع نوح) لنخرج بنتيجة أنهم أبناء نوح الذكور لكن التّعبير جاء بصورة غير مباشرة.

لقد تعددت الآراء فيما سبق، يقول القرطبي: "وَقَالَ قَوْمٌ: كَانَ لِغَيْرِ وَلَدِ نُوحٍ أَيْضًا نَسْلٌ، بِدَلِيلِ قوله: " ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ" (القرطبي، 1964، ج15، ص89). ويقول ابن عاشور: "واعلم أنّ في اختيار وصفهم بأنّهم ذريّة من حمل مع نوح عليه السلّام معاني عظيمة من التّذكير والتّحريض والتّعريض؛ لأنّ بني إسرائيل من ذريّة سام بن نوح وكان سام ممن ركب السفينة"(ابن عاشور، 1984،ج14، ص22). والتّخريج هنا ربّما قائم على ضغط الموروث والروايات، وليس قائمًا على دقائق النّصّ ودلالاته التي تؤكّد أن بني إسرائيل ليسوا من ذريّة نوح، بل من ذريّة المحمولين معه، فلماذا يتجاهل الخطاب حقيقة أنّهم من ذريّة نوح، ويلجأ إلى نسبتهم إلى الذين حُملوا معه، إن كانت تصوراتنا صحيحةً؟ رغم وجود أهل لنوح ناجين معه؟ ولعلّ هذا الأمر كان مدعاة لنقض بعض المفسريّن لآرائهم السّابقة بهذا الخصوص، ومثال ذلك ما نجده عند ابن عاشور فقد نقض استنتاجه السّابق في موطن آخر عند تفسيره لسورة مريم؛ فهو يتساءل عن جدوى "أن يكون بنو إسرائيل من ذريّة المحمولين مع نوح"؟(ابن عاشور، 1984، ج16، ص23).

ولو كانت الأدلّة المتقدّمة هي الوحيدة في القرآن لخرجنا بنتيجة مؤكّدة أنّ نوحًا لم يكن له ذريّة ممتدة من بعده أبدًا، على الرغم من ركوب نفر من أهله السّفينة ونجاتهم معه، لكن ثمّة أدلّةً أخرى يمكن لها أن تتعارض مع ما تقدم –حاشا لله– لولا وجود مخرج يحل التّعارض نوضحه في المبحث الآتي.

ثالثا: تعاضد الأدلة النّصيّة

تبين لنا فيما تقدم ثلاثة استنتاجات، نعيد إجمالها: كان لنوح أهل ناجون معه في السفينة. وكان مع نوح مؤمنون نجوا معه وتناسلوا. ولم يكن نوح أصلًا ثابتًا في سلسلة ذراري الأنبياء الذين تلوه، كان أغلب الأنبياء التّالين لنوح من ذريّة المحمولين معه، وإلى هذا الحد لا توجد مشكلة مع الأدلّة، لولا وجود دليلين آخرين يفيدان دخول سلالة نوح في ذراري الأنبياء من بعده، فكيف ذلك؟

وما هي الغاية إذن من قوله تعالى: (ذريّة من حملنا مع نوح)، لنقف مع الأدلة التي يمكن أن تتعارض مع ما تقدّم، الأول منها: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ، وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ، وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ﴾ (الصافات:75–77). والثاني: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد:26).

ونبدأ هذا الجزء من التّأويل بهذا السؤال: كيف جعل الله ذريّة نوح هم الباقين فقط، وقد تقدّم الكلام أنّ ثّمة باقين أيضًا من ذريّة الذين حُملوا مع نوح، (وعلى أمم ممن معك)؟ وكيف ذلك وبنو إسرائيل ينتمون للمحمولين مع نوح تحديدًا وهم باقون إلى يومنا هذا؟ ومن جهة أخرى كيف نوفّق بين الآيات المتقدّمة وبين قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ﴾ (الحديد: 26)، وهنا كيف جعل الله النبوّة في ذريّة نوح وإبراهيم معًا؟ ونحن نعلم أن بني إسرائيل هم ذريّة المحمولين مع نوح، وأنّ أنبياءهم لا يعودون في أصل نسبهم إلى نوح؛ فهم جميعًا من ذريّة واحدة هي ذريّة إسحق بن إبراهيم؟ إنّ اشتباك نوح من جهة في ذراري النّبوات وانفصاله من جهة أخرى يشير لنا أنّه كان له نسل في الأنبياء، ولو كان نوح متّصلًا بشجرة النّبوات كاتّصال إبراهيم لكان له وصف كغيره على نحو(آل نوح) أو(بني نوح)؛ لذلك ينبغي التّأمل في الآية الآتية: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران:33–34)، فالاصطفاء الفرديّ كان لـ(آدم ونوح)، وليس آل نوح، أما آل إبراهيم وآل عمران فالاصطفاء للآل ككل، وهذا علامة على امتداد نسل النبوة، أما نوح فالاصطفاء له وحده، وهذا يدلّ أنّ ليس له من سلالته المباشرة نبي. ونستدلّ هنا برأي الطّبري في تفسيره لدلالة (الذريّة) بقوله:"والمعروف من معنى (الذرية) في كلام العرب: أنها أعقاب من نسبت إليه من قبل الرجال والنساء، كما قال جل ثناؤه: (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ)،وكما قال: (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ) ثم قال بعد: (وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ) [الأنعام: 84، 85]، فجعل من كان من قبل الرّجال والنّساء من ذريّة إبراهيم" (الطبري، د.ت، ج15، ص166).

وفي تتبعنا لورود اسم نوح في القرآن نجده قد ورد (29) مرةً، منها (11) مرة لقوم نوح، ومنها مرة واحدة (امرأة نوح) والباقية (17) لنوح، ولم يذكر القرآن مصطلح (آل نوح) على غرار إبراهيم مثلًا كما نصّ القرآن على ذلك:﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ﴾(النساء: 54). ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ (مريم:58). والآية الأخيرة كافية لدحض أيّ زعم في وجود أبناء نوح الثّلاثة (سام وحام ويافث)، فلو كانت البشريّة انحدرت منهم –كما تحدثت الروايات (القِنّوجي، 1992م، ج6، ص185) فلماذا

يتجاهلهم القرآن؟ وهل كان نوح أبًا ثانيًا للبشريّة بعد آدم كما تزعم المراجع التّاريخية خلافًا للقرآن؟ لماذا يصرّ الخطاب القرآنيّ على تغييبهم؟

وكيف نوفّق بين هذه التّساؤلات وبين قوله تعالى في الدّليل الأول: (وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ) فما معنى البّاقين؟ فقصديّة الخطاب التي تتوارد إلى الذهن فور سماع كلمة (الباقين) أنّ المقصود بها: الذين كُتب لهم البقاء حصريًا، وهذا يتعارض مع نجاة الذين حُملوا مع نوح من غير أهله، جاء في تفسير الزحيليّ:" وَ(جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ) أي وجعلنا ذريته وحدهم دون غيرهم هم الباقين على قيد الحياة، وأهلكنا من كفر بدعائه، ولم نبقِ منهم باقية، ومن كان معه في السّفينة من المؤمنين ماتوا كما قيل، ولم يبق إلا أولاده وذريته. والآية تفيد الحصر". (الزحيلي، 1991م، ج23، ص106)، في حين ذهب بعضهم إلى أنّه نوع من المجاز(أبو سعدة، 1994). وهنا نجد مانعًا سياقيًّا يمنع حمل كلمة (الباقين) على الذين كُتِب لهم البقاء حصريًّا من بين أبناء آدم كلّهم، وكما سيأتي في الفصل التّالي فإن نوحًا والنّاجين معه ليسوا حصريًّا هم الموجودون بعد الطُّوفان؛ بل هم الموجودون من قومهم بعد الطُّوفان، حيث سيتجلى بوضوح أنّ ذريّة نوح كانوا الباقين من بين قومه المُغرَقين وليس بالضّرورة من بين جميع البشر. وقد ذهب محمد رشيد رضا هذا المذهب إذ قال:" أَمَّا قَوْلُهُ فِي نُوحٍ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – بَعْدَ ذِكْرِ تَنْجِيَتِهِ وَأَهْلِهِ: وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ فَالْحَصْرُ فِيهِمْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِضَافِيًّا، أَيِ الْبَاقِينَ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ قَوْمِهِ" (رضا، 1990،ج12، ص88)، هذا من جهة ومن جهة ثانية لا يوجد مخرج من التّعارض في أنّ ذريّة نوح هي التي بقيت حصريًّا دون غيرهم، وأنّ المحمولين مع نوح أيضًا بقوا، وأنّ بني إسرائيل هم ذريّة المحمولين مع نوح! وأنّ المحمولين مع نوح ينقسمون إلى فئتين هما: أهله، والمؤمنون معه من غير أهله، وهنا ينبغي أن يكون لكلمة (الباقين) دلالة ثانوية تغاير دلالة الذين كُتب لهم البقاء حصريًّا، ونحن بدورنا نميل إلى توجيه معناها إلى: الذين كُتب لهم البقاء حصريًّا في سلالة النبوات، وليس سلالة البشر جميعًا؛ لأن المُغرَقِين –كما سيأتي– ليسوا كل البّشر؛ بل هم قوم نوح حصريًّا، وهذا لا يحتاج إلى استفاضة؛ ويكفي فيه هذه الآية: قال تعالى:﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ (الشعراء:117). فإن شكوى نوح من قومه لا من البشر جميعًا، ودعاؤه بالفتح بينه وبين قومه فقط، وليس البشر جميعًا، وقوله (ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ) من قوم نوح لا من البشر جميعًا، وستأتي مناقشة ذلك.

إنّ هذه الأدلّة لا يمكن الجمع فيما بينها دون إغفال لدقائق التّعبير القرآنيّ إلا في حالة واحدة واحتمال تأويلي واحد هو القادر على حملها جميعًا ألا هو: معرفة أجناس ذريّة نوح النّاجية؛ فإذا كان النّاجون من أهله ذكورًا لن نعدم وجود التّعارض مهما تغافلنا عن دقائق النّص، فهل كان لنوح

ذرية ذكور ناجون كما تطالعنا المرويّات التّاريخيّة؟ الجواب –وفقًا لتقديرنا– أنّه كان له ذريّة ناجية من البنات فقط، بمعنى لم يكن نوح أبًا أوليًّا لسلسلة ذراري النبوات من جهة أبنائه الذكور، بل من جهة بناته، فكان في ذلك فرعًا لا أصلا في الذريّة التي نُسبت لآبائها المحمولين معه وليس لوالد أمهاتها، فتكون الذريّة النّاشئة –التي يمثل نوح جدها لأمهاتها– هي التي كُتب لها البقاء والاستمرار في نسل النّبوات من بعده، وهذا التّأويل هو الوحيد القادر على دفع شبهة التّعارض، أو عدم قصديّة الخطاب القرآنيّ، حتى لا نقع فيما يُشبه التّعارض والتّناقض في كتاب الله –حاشاه، وفي هذه الحالة يصبح بنو إسرائيل منتمين للذين حُملوا مع نوح وهو أصل في الانتماء، كما ينتمون إلى نوح من جهة بناته وهو فرع في الانتماء، ويكون إبراهيم من ذريّة المحمولين مع نوح أصلًا، ومن ذريّة نوح فرعًا من جهة بناته، وتصبح الأدلّة جميعها متعاضدةً لا متعارضةً، ولا نحتاج إلى تحميل قوله (ذريّة من حملنا) دلالة أنّ المحمولين جميعًا كانوا أبناءه، ونتناسى المؤمنين المحمولين أو نفترض أنّهم ماتوا بعد هبوط السفينة، ويصبح فهم هذه الآية (وجعلنا في ذريّتهما النّبوة) سهلًا دون ملابسات.

فالرأي الذي ترجحه هذه المقاربة هو أنّ ذريّة نوح النّاجية التي دخلت في ذراري الأنبياء من بعده هي من جهة بناته حصريًّا وذلك للأسباب الآتيّة:

أولا: أنّ صيغة (ذريّة من حملنا مع نوح) تتواءم مع كون آباء الذريّة هم من المؤمنين النّاجين مع نوح.

ثانيًا: أنّ صيغة (وجعلنا ذريّته هم الباقين) (وجعلنا في ذريّتهما النبوة) يتواءم مع كون نوح له فرع في ذراري النّبوات وهذا الفرع من جهة بناته، وهنا ينتفي التّعارض، وقد تمّ اللجوء إلى هذا التّأويل دفعًا للشبهة عن كتاب الله، وإيمانًا بدقائقه الحسّاسة، وانطلاقًا من عدم جعل التّاريخ موجهًا لدقائق السّياق.

ومن الأدلة القرآنيّة التي ترجّح ما ذهبنا إليه ما جاء قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ(83) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ(85) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ(86) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (87) ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(88) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا

بِهَا بِكَافِرِينَ(89) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام: 83-90).

فهذه الآيات لو تأملناها جيّدًا لوجدنا فيها استفسارات كثيرةً ناتجةً عن ترتيب الأنبياء ترتيبًا غير تاريخيّ، وناتجةً عن مرجعيّة الضّمير في كلمة (ذريّته)، وناتجةً عن البدء بإبراهيم ثم ذكر نوح بعده، ثم تأرجح نسبة الأنبياء المذكورين لنوح ولإبراهيم، فنوح أسبق عهدًا من إبراهيم، فهل من العبث – حاشا لله– أن يتمّ التّغافل عن أسبقية نوح؟ أم أن القرآن يريد أن يصحح تصوّراتنا؟ وبما أن نوحًا هو المتقدِّم زمنيًّا فقد كان من المنطقيّ زمنيًّا أن يبدأ به لولا وجود علّة أخرى مرادة من هذا التّرتيب الذي كثرت حوله الآراء، إنّ الإصرار على البدء بإبراهيم جعلنا نشعر أنّ ذكر نوح في الآية كما لو كان –حاشا لله– ثانويًّا؛ وإلا فنوح يقع في مقدمة السّلسلة النّورانية من الأنبياء، فهل كان تقديم إبراهيم عليه من باب التّشريف، أم من باب الأكثر تفرعًا في شجرة الأنبياء؟

فأخذا بمبدأ القصديّة فإن استعمال أيّ حرف في القرآن الكريم لا يمكن أن يكون استعمالا عبثيا؛ فجميع المشمولين في كلمة (ذريّته) يعودون لنوح من جهة بناته، وقد تقدّم ذكر إبراهيم؛ لأن أغلب المذكورين –لا جميعهم– يعودن في ذريّتهم لإبراهيم بدرجة أقرب من عودتهم لنوح؛ فهم ينتسبون لإبراهيم من جهة أبنائه، بينما هم يتصلون بنوح من جهة بناته، وهذا هو السّبب في إشكاليّة الضّمير في كلمة (ذريّته)، فهي كلمة ذات قوّة إشاريّة، مما يرجّح لدينا أنّ هذا التّرتيب للأسماء مراد بقصديّة تامة، فالضّمير المتّصل بكلمة (ذريّة) تنازعه توجيهان لغويان: أحدهما يقول إنّ الضّمير يعود على أقرب مذكور وهو في هذا السّياق نوح، والآخر يقول: إنّ الضّمير يعود على إبراهيم؛ لأن السّياق يتحدث عنه تحديدًا، يقول القرطبي: "(وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ) أَيْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَقِيلَ: مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ، قَالَهُ الْفَرَّاءُ وَاخْتَارَهُ الطَّبَرِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ كَالْقُشَيْرِيِّ وَابْنِ عَطِيَّةَ وَغَيْرِهِمَا، وَالْأَوَّلُ قَالَهُ الزَّجَّاجُ، وَاعْتَرَضَ بِأَنَّهُ عُدَّ مِنْ هَذِهِ الذُّرِّيَّةِ يُونُسُ وَلُوطٌ وَمَا كَانَا مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ. وَكَانَ لُوطٌ ابْنَ أَخِيهِ. وَقِيلَ: ابْنُ أُخْتِهِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءُ جَمِيعًا مُضَافُونَ إِلَى ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ لَمْ تَلْحَقْهُ وِلَادَةٌ مِنْ جِهَتِهِ مِنْ جِهَةِ أَبٍ وَلَا أُمٍّ، لِأَنَّ لُوطًا ابْنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ"(القرطبي، 1964، ج7، ص31). ويرى العكبري أن:" الهاء في (ذريته) تعود على نوح، والمذكورون بعده من الأنبياء ذريّة نوح، والتّقدير: وهدينا من ذريّته هؤلاء. وقيل تعود على إبراهيم وهذا ضعيف؛ لأنّ من جملتهم لوطًا وليس من ذريّة إبراهيم"(العكبري، دت، ج1، ص515).

أمّا المانع من جعل الذريّة خاصةً بنوح فهو: أنّ السّياق كلّه عن إبراهيم، ثم حديثنا المتقدّم من أنّ نوحا ليس له ذريّة ذكور ناجون، وأنّ غالبية الأنبياء المذكورين في الآية نعلم انتسابهم لإبراهيم على وجه الجزم، وليس لدينا أيّ إشارة في نسبة أي منهم لنوح، إنّ الأنبياء المذكورين جميعًا ينتسبون لنوح من جهة بناته –بما فيهم لوط ويونس وعيسى– انتسابًا لا يعطيهم أحقية انتساب الذريّة لأبيها؛ لأنّ آباءهم مختلفون، وأمهاتهم يعدّن في النّسب إلى نوح، كما أن غالبية المذكورين من الأنبياء ينتسبون لإبراهيم انتساب الذريّة لأبيها باستثناء لوط وعيسى على وجه القطع، وربما يونس على وجه الظّنّ، ومن هنا تقدّم إبراهيم في الذّكر على نوح بسبب أهليته في انتساب المذكورين بعده إليه، وتأخّر ذكر نوح، ومن جهة أخرى: هذا ما جعل الضّمير في كلمة (ذريّته) يبدو صالحًا للنبيين معًا وهو كذلك، فهو من جهة اللغة صالح لنوح، وهو من جهة السّياق صالح لإبراهيم، وهو من جهة الحقائق الدّقيقة لا ينطبق كليًا على إبراهيم إلا ببعض التّجاوزات (التّغليب) وهو من جهة حقائق الانتساب التي افترضها الله (ادعوهم لآبائهم) لا ينتسبون لنوح إلا من جهة فرع لا أصل، وهنا نستذكر هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ (الحديد: 26)، فهي تفيد اشتراكهما معا في ذريّة النّبوات التّالية لهما، وإذا علمنا أنّ إبراهيم هو من ذريّة المحمولين مع نوح وليس من ذريّة نوح سيزيد استغرابنا فكيف ستلتقي هذه الذّراري من الأنبياء عند نوح وإبراهيم معًا؟ وإبراهيم ليس من صلب نوح؟ لا مخرج لهذا سوى أنّ نوحًا يقع في سلسلة أسلاف إبراهيم ولوط من جهة بناته لا أبنائه، وهنا التقى طرفا المعادلة تمامًا عندما نستنتج من دقائق السّياق أنّ ذريّة نوح الباقية كانت بناتٍ تزوجهنّ أتباعه المؤمنون، ولو كان إبراهيم من صلب نوح لكان في الآية زيادة؛ ذلك أنه يكفينا أن تخبرنا الآية عن نوح فقط وأنّه جعل في ذريته النبوة، وهذا يقتضي بالضّرورة أنّ إبراهيم مُتضمَن فيها، فلماذا أشرك إبراهيم فقط مع نوح؟ لماذا لم يشرك معهما يعقوب؟ الجواب؛ لأنّ يعقوب مُتضمَن كليًا في ذريّة إبراهيم، أمّا إبراهيم فليس متضمنًا كليًا في ذريّة نوح ومن هنا وجب تخصيصه.

الفصل الثاني: قصديّة الطّوفان

نبتدئ هذا المدخل من المقاربة بالسّؤال الآتي: لماذا عاقب الله أقواما سابقة كقوم ثمود، وعاد ولوط وغيرهم؟ إنّنا لا نجد غضاضةً في الجواب بناءً على سنن الله التي لا تتبدل، وسنة الله أنّه لا يعذّب حتى يبعث رسولًا، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولا﴾ (الإسراء:15). وانطلاقًا من إيماننا بسنّة الله في الكون ينبغي مراجعة تصوّراتنا حول الرأي القائل إنّ الطّوفان قد عمّ الكرة الأرضيّة بكاملها وأفنى كل الأحياء سوى من كان على السّفينة. وهنا نطرح السّؤال الآتي: هل كان

نوح نبيًّا للكرة الأرضيّة كلّها وأبا للبشريّة من بعد آدم؟ وهل غرقت الكرة الأرضيّة كلّها في زمنه؛ لأنّه كان رسولًا لأهل الأرض كلّهم وما هو الدّليل على هذا؟ يبدو أنّ الأخذ بهذه التصوّرات مستوحى من تراث أهل الكتاب، وقد تعامل معها النّاس على أنّها مسلمات، لكنّ القرآن بقصديّة خطابه ربّما لا يدعم هذا.

أولاً: قصديّة الغرق في القصّة

أخذًا بمبدأ القصديّة في الخطاب القرآني وعدم التّهاون في دقائق سياقاته ينبغي عدم جعل الرّوايات والآراء ذات حاكمية فوق ظاهر النّص القرآني، وانطلاقًا من هذا التصوّر فإننا سنقتفي أثر نبوة نوح في القرآن وعقاب الطُّوفان، لذلك سنتتبع في هذا المدخل السؤال التالي: هل كان نوح – بعمره المديد– نبيًّا في قومه فقط؟ أم أنه كان طوّافًا في الأرض ونبيًّا لكلّ أهل الأرض؟ وهذا الرأي ما ذهبت إليه بعض التّفاسير (العثيمين، 1436، ص188)، ويلحق بهذا سؤال آخر وهو: هل كفر كل أهل الأرض برسالة نوح؟ أم كان الأمر مقتصرًا على قومه فقط؟ وهل تم عقاب أهل الأرض كلّهم؟ أم كان العقاب خاصًّا بقوم نوح؟

إنّ الجواب على هذه الأسئلة يكمن في غير موضع في القرآن منها: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: 14) فنوح مرسل إلى قومه فقط وحصريًّا، وقد لبث مدته الأولى (950سنة) كلّها فيهم وهو يدعوهم حصرًا فقط، وقد كذّبه قومه فقط، ولحق العذاب بقومه فقط وليس البشر جميعًا، وكذا نجد في قوله تعالى: ﴿فقَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ، فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:117–118). فنوح لم يدعُ سوى قومه بصريح الخطاب على لسانه في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ (نوح:5)، ومن هنا –ووفقًا لسنن الله– لا ينبغي معاقبة الأقوام الآخرين بجريرة قومه، وهو في الأصل لم يتم إرساله إلا لقومه حصريًّا، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (نوح:1).

وبناءً على ما تقدّم فإن خصوصية العذاب بالطُّوفان كانت لقوم نوح فقط دون غيرهم تبعًا للآيات القرآنية التي أكّدت هذا الرأي في غير موضع منها قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾(هود:89). فالطوفان أصاب قوم نوح وليس كل الأقوام، وكذلك نجد في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ (الأعراف:64). فالإغراق كان للمكذبين برسالته، وبما أنّ نوحا لبث في

قومه 950 سنة، فإنّ القرآن لم يخبرنا أنّ عموم البشر كذّبوه، لذا يلزم أن تغرق عموم الكرة الأرضيّة، "فاالقرآن الكريم لم يرد فيه نصّ قاطع على عموم الطُّوفان، ولا عموم رسالة نوح عليه السّلام، وما ورد من الأحاديث، على فرض صحة سنده، فهو آحاد لا يوجب اليقين. والمطلوب في تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظّن، "إذا عدّ اعتقادها من عقائد الدّين وأمّا المؤرخ، ومريد الاطلاع، فله أن يحصل من الظّنّ ما ترجحه عنده ثقته بالرّاوي أو المؤرخ، أو صاحب الرأي. وما يذكره المؤرخون والمفسّرون في هذه المسألة لا يخرج عن حد الثّقة بالرّواية، أو عدم الثقة بها، ولا يتخذ دليلا قطعيا على معتقد ديني" (القاسمي ،1418، ج6، ص104).

وحتى لا نفوّت أيّ احتمال من احتمالات قصديّة الخطاب القرآنيّ- ينبغي افتراض أنّ قوم نوح قد يكونون الوحيدين على الكرة الأرضية ولا يوجد سواهم، لذا فإنّ اختصاصهم بالعذاب يفيد عموم البشر الموجودين وقتذاك، ونحن بدورنا نستبعد هذا الافتراض من باب أنّ فكرة وجود قوم تقتضي سلفًا وجود قوم آخرين، فقصديتا التعريف والتّلازميّة عبر الإضافة (قوم نوح) تقتضيان سلفًا وجود أقوام آخرين، وقد تطلّب تمييز نوعهم وتعريفهم، لذا ينبغي تدقيق النظر في قوله تعالى على لسان نوح:(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا)، فالدّلالة التّداوليّة لإضافة الضمير لـ(قومي) تستوجب سلفًا وجود أقوام آخرين.

إنّ المألوف التراثي المتداول أنّ نوحًا دعا على أهل الأرض كلّهم بالفناء، وهذا الرأي يبدو أنّه استدلّ بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (نوح:26)، لذا لا بدّ من الّتوقّف على الدّلالة التّداوليّة للفظة (الأرض)، فهل استعمال لفظة الأرض بالضّرورة أن يفيد عموم الكرة الأرضية؟ أم أرض قومه فقط؟ وإن كان عموم الكرة الأرضيّة فما الذي أخبر نوح بأن الذين يسكنون أقاصي الأرض في القارات البعيدة أنّهم كافرون، وأنّهم لن يلدوا إلا فاجرًا كفارا؟ وهو قد لبث كامل مدته الطّويلة في قومه فقط (فلبث فيهم) ولم يقل: (فيها)؟ وهل كلمة الأرض في الخطاب القرآنيّ دائمًا تفيد عموم الكرة الأرضيّة؟ أم أنّها قد تفيد القرية والدّولة والمنطقة وقشرة الأرض الخارجية والكرة الأرضية بحسب السّياق؟ يقول رشيد رضا:" فَلَيْسَ نَصًّا فِي أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَرْضِ هَذِهِ الْكُرَةُ كُلُّهَا، فَإِنَّ الْمَعْرُوفَ فِي كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَقْوَامِ وَفِي أَخْبَارِهِمْ أَنْ تُذْكَرَ الْأَرْضُ وَيُرَادَ بِهَا أَرْضُهُمْ وَوَطَنُهُمْ، كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - حِكَايَةً عَنْ خِطَابِ فِرْعَوْنَ لِمُوسَى وَهَارُونَ: وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ"(رضا، 1990م، ج12، ص88). ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ (الإسراء:76). فالأرض هنا هي قرية الرّسول (مكّة)، والإخراج منها ليس إلى كوكب آخر، وانتهاءً من هذه الجدليّة نسوق هذا الدّليل على تنوّع دلالة كلمة الأرض، قال

تعالى:﴿قَالُوٓاْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِى ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ (النّساء:97).

لذلك فإنّ لفظة (الأرض) لا تفيد العموم دائما أينما وردت؛ بل يجب تتبع دقائق خطابها في السّياق الخاص بها، وبالعودة إلى دعاء نوح (ربّ لا تذر) فإنّ كلمة الأرض ليست إلا أرض قومه؛ لأن نوحًا لم يغادرهم (فلبث فيهم)، وظل يجادلهم طوال مدته ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ (هود:32) حتى يئس من صلاحهم وصلاح ذراريهم؛ لأنّه عايش أجيالًا تلو أجيال منهم وكانوا على طبيعة واحدة كما أنّه لم يثبت بصورة قطعيّة أنّ الطُّوفان عمّ على الأرض كلّها (العاني، 1965م، ج3، ص،451).

ويتبادر هنا جملة من الاستفسارات منها: لو كانت أرض قومه فقط ما هي حاجته للسّفينة وهو يستطيع أن ينجو هو وأتباعه بالعبور البريّ قبل حدوث الطُّوفان، كحال سائر الأنبياء بعده (هود، صالح، لوط، شعيب..) ولو كانت الكرة الأرضيّة هي التي غرقت كلّها فما ذنب الأقوام الآخرين –إن وجدوا– في أقاصي الأرض لتنال منهم دعوة نوح ولا تبلغهم رسالته وإنذاره؟ ولو كان مجتمع قوم نوح هم الوحيدين على سطح الأرض فما هي الحاجة لإغراق الكوكب كلّه؟ تجدر الإشارة أنّ كتاب العهد القديم قد تحدث عن سبب إغراق الأرض كلّها وذكر أسبابا ننزه الله عنها (يُنظر: العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح:5–8).

في البداية نفترض أنّ أرض قوم نوح كانت شاسعةً بالقدر الذي ستكون فيه نجاته صعبةً على رجل مسنّ ضارب في القِدم، كما أنّ أرض قومه جبلية (سآوي إلى جبل) إذ يتعذر اجتيازها بسهولة، وهذا بدوره يوفر فرصةً للماء أن يتجمع بين الجبال ويعلو بسرعة كبيرة، ولا ننس أنّ لدينا سنة ربّانية هي عدم الأخذ بالعذاب دون إرسال الرسل، إنّ افتراض إغراق الأرض كلّها بجريرة قوم نوح مخالف لسنن الله في الأرض، إلا من وجهتين: الأولى: عدم وجود أقوام أخرى غيرهم على الأرض فيكونون أوّل نواة لمجتمع بشري، ومن هنا قد تغرق البشريّة كلّها ولا يتبقى سوى نوح ومن آمن معه، ولا يُشترط أن تغرق الكرة الأرضيّة بشرط أن يكون قومه منتشرين على كامل رقعة الكرة الأرضية، وهذا مستبعد جدًا. والثانية هي غرق قوم نوح فقط في أرضهم الشاسعة وبقاء الأمم الأخرى البعيدة، قال تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنبياء: 77)، فالنصرة لنوح كانت على قومه فقط، وقد غرق مكذبو قومه فقط وليس باقي الأقوام، وقال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ (الفرقان:37) فكيف كان قوم نوح

آيةً للناس في زمنه إذا كان الناس كلّهم قد غرقوا؟ يقول المراغي:"ولم يعقب أحد ممن كان في السفينة عقبًا باقيًا سوى أبنائه الثلاثة: سام وحام ويافث...وهذا هو المشهور على ألسنة المؤرخين، وليس في القرآن ولا في السّنة نصّ قاطع على شيء من هذا، كما أنّه ليس في القرآن ما يشير إلى عموم دعوته لأهل الأرض قاطبة، ولا أنّ الغرق قد عمّ الأرض جميعها، وأنّ ما تفيده الآية من جعل ذريّته هم الباقين إنّما هو بالنسبة لذريّة من معه في السّفينة، وذلك لا يستلزم عدم بقاء ذريّة من لم يكن معه وقد كان في بعض الأقطار الشّاسعة من لم تبلغهم الدعوة، فلمَ يستوجبوا الغرق كأهل الصّين وغيرهم من البلاد النائية"(المراغي، 1946م، ج23، ص67).

ثانيًا: قصديّة صيغة (من كلّ زوجين).

لو كان المكان الذي غمره الماء هو أرض قوم نوح فما هي الحاجة ليحمل من كلّ الكائنات الحيّة زوجين اثنين على السّفينة في الوقت الذي يوجد على باقي بقاع الأرض بدائل منها؟ ثم هل كلمة (الأزواج) تفيد الحيوانات؟ هل خصص القرآن ذلك؟ هل ذكر القرآن أنّ نوحا أُمرَ بحمل زوجين اثنين من كلّ الكائنات الحيّة؟ أم أن الخطاب تم أُخذه اعتباطيًّا، وأنّ المعلومة التّوراتيّة لقيت رواجها؟ هل صيغة(من كلّ) تفيد الاستقصاء التّام في بعض سياقات القرآن؟ هل يمكن للسّفينة مهما بلغ حجمها أن تحمل هذا العدد الهائل من أزواج المخلوقات؟ أم أنّ الأمر مقتصر على أزواج الحيوانات الموجودة في بيئته فقط ولا يوجد لها نظائر في سائر البقاع؟ إنّ القرآن لم يخصص حمل الحيوانات في السّفينة، بل جاء الوصف بقوله تعالى: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (هود: 40)، إنّ صيغة (الزوجين) غير مخصصة بالحيوانات؛ فمن كل شيء خلقه الله يوجد زوجان: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات:49)، ودلالة لفظة(شيء)هنا غير مخصصة بالحيوانات، بل إن عالم النباتات هو الذي حظي بخصوصية وصف(زوجين اثنين) قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (الرعد:3).وكذلك الحال بالنسبة لصيغة الجمع (أزواج) فهي تشمل النّباتات﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ (يس:36). ووردت مرتين تحديدًا مع الأنعام وليس سائر الدّواب ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ (الزمر:6).

إنّ الإشكال في هذه المعجزة ليس فقط قدرة السّفينة على حمل هذا العدد المهول فحسب! بل قدرة نوح على جمعها! خصوصًا إذا علمنا أنّ الله أمره هو ولم يأمر الأزواج بالركوب في السفينة؛ فقد أمره الله تعالى في موضعين بقوله (فقلنا احمل فيها) والآخر (اسلك فيها) ولم يوجّه النّداء مباشرةً للحيوانات بالرّكوب في السّفينة، بل وجه الأمر لنوح بإركابها، وقدرة الله تعالى نافذةً فلو أنّه أمر الأفلاك والنجوم بالركوب في السفينة لما وسعها إلا الإذعان، ولكن الله أخبرنا أنه أمر نوحًا بحمل

الأزواج، وهنا نستنتج أنّ أمر حمل الأزواج يسير ولا يتطلب وقتًا أو جهدًا، فهل كانت الأزواج محصورةً بالأنعام الثّمانية فقط؟ وهل يستطيع نوح وقومه ومن في الأرض جميعًا إحضار زوجين من كل مخلوق موجود على الأرض؟ وفي زمن يسير عند فوران التّنور!

ومن جهة ثانية هل تفيد صيغة (من كلّ) في الخطاب القرآني العموم المطلق أم أنّها نسبية؟ ولو كانت مطلقةً هل حمل نوح معه الأسماك في السّفينة؟ فالأسماك مخلوقات وأزواج ولا يمكنها العيش على ظهر السّفينة دون ماء؟ إنّ هذا يقطع لك جزمًا أنّ صيغة (من كلّ زوجين) لا تفيد عموم المخلوقات، بل إنّ لهذه الصّيغة لواحق سياقيّةً محذوفةً حتمًا، كأن تكون مثلًا: من كلّ زوجين من الأنعام، ولا بد من وجود استثناء في هذه الصّيغة العموميّة، وهذا الاستثناء محذوف ويمكن تقديره تبعًا لسياق الواقع، وهنا سنقف عند بعض استعمالات صيغة (كلّ شيء) في القرآن، إذ يتبادر إلى أذهاننا أنّها تفيد مطلق الأشياء كلّ الأشياء بلا استثناء، والحقيقة غير ذلك، كما نجد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ (الأنعام: 154).

إنّ صيغة (كلّ شيء) لا تقتضي بالضرورة تفصيل كلّ ما في الوجود، بل في موضوع الحلال والحرام، ولا يمكن الوقوف على هذه الآية قبل المرور على نظيراتها، قال تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا﴾ (الأعراف:145)، فكم اتسعت هذه الألواح لتكون مكتبةً لكلّ شيء، إذا أخذناها على العموم؟ فصيغة (كلّ شيء) هنا لا تعني عموم ما في الوجود؛ بل هي فيما يتعلّق بالحرام والحلال، ويتبع لذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ (يوسف:111)، فلو ربطنا الآيات مع بعض بعضها لوجدنا القرآن جاء مصدّقًا لما بين يديه من (الكتاب) وهو الشريعة عند موسى، فالشريعة هي تفصيل الحرام والحلال، وهدى وموعظة، ومن هنا كان القرآن تفصيلًا آخر للذي قبله، ونحو ذلك قوله تعالى في مضمون التّفصيل المتعلّق في الحرام ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ (الأنعام:119).

ونظير ذلك من قصّة سليمان والهدهد ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (النمل:16)، فهذه الآية هي خطاب محكيّ أيّ كلام بشر نقله القرآن، ولكن صيغة(كلّ شيء) الذي أوتيه سليمان هو نسبيّ ولا يقتضي بالضرورة عموم كل شيء، فهل كان عنده مثلًا (عرش ملكة سبأ) ؟ ونظير ذلك قول الهدهد: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (النمل:23) فهل كان لملكة سبأ

سلطان سليمان وسيطرته على الجان مثلًا؟ ومن هنا نخلص أنّ صيغة (كلّ) ليست على العموم دائمًا، بل هي على علامة حيازة خاصّة، كما تفرد سيدنا سليمان بالحكم، وكما تميزت ملكة سبأ بطاعة الشّعب وبالقوة.

وللوقوف على دلالة صيغة (من كلّ زوجين)، علينا قبل كل شيء ألّا ننزعها من سياقها، وهو أنّ لحظة الأمر بحمل الأزواج على السّفينة كانت لحظة الحسم التي فار فيها التنور قال تعالى:﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (هود:40) فهذه اللحظة هل تكفي للبحث عن الأزواج بغية إدخالها إلى السفينة –في حال أننا علمنا أن الوقت قصير ومشحون بالقلق والترقب؟ مع العلم أنّ كثيرًا من أزواج المخلوقات كالطّيور تستطيع أن تنجو بالطّيران، وكالمخلوقات البحريّة الحوت بأنواعه، وهذا ما يجعل صيغة (كلّ) غير دالّة على العموم مطلقًا في بعض السّياقات، "فإذا قلت: (أكلتُ كلّ رغيف لزيد) كانت لعموم الأفراد، وإذا أضفت الرّغيف إلى (زيد) صارت لعموم أجزاء فرد واحد" (الأنصاري، 2000، ج3، ص85). ومن هنا يترجّح لدينا عقليًّا بعد تفحص الطّاقة الدّلالية للنّص أنّ نوحًا حمل معه زوجين اثنين من كلّ نوع من الأنعام التي كان يربيها قومه، ولا يتوفر منها نظائر في البقاع الأخرى. ومن جهة ثانية لا تشير السياقات المتعددة لقصة نوح أن نوحًا قد استعد من قبلُ للحظة إدخال الأزواج إلى السفينة، وأنه عمل على تجميعها.

إنّ الرأي الراجح عندنا في هذه المقاربة لدلالة الأزواج التي حملها نوح هي الأنعام؛ بدليل آخر من القرآن، إذ يقول تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ (الزمر:6). والإنزال فيما يبدو من السّفينة لا من السماء، وإلا فالمخلوقات التي يطعمها الإنسان كالطيور وصيد البحر لماذا لم توصف أنها منزلة؟ وهنا تفرّقت كتب التّفسير في تقدير معنى الإنزال، فمنهم من رأى أنّه بمعنى (جعل) (القيرواني، 2007،4 29)؛ ويبدو أنّ ذلك تهرب من الدّلالة المباشرة للفظة، يقول ابن عادل:"معنى الإنزال ههنا الإحداث والإنشاء كقوله: (أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ) (الأعراف: 26)، وقيل: معناه أنزل لكم من الأنعام جعلها نزلًا لكم ورزقًا ومعنى ثمانية أزواج أي ثمانية أصناف"(ابن عادل، 1998، ج16، ص475)، وبما أنّ المعنى الحقيقي للفظ (الإنزال) لا يمكن التهرّب منه إذا احتمل السياق وجهًا من وجوهه فإن دلالة الإنزال مع الأزواج الثمانية لا يمكن الجمع بينهما بغير الإنزال من السفينة،ومن هنا يرى ابن عاشور هذا الرأي: "وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِنْزَالُ الْأَنْعَامِ إِنْزَالَهَا الْحَقِيقِيَّ، أَيْ إِنْزَالُ أُصُولِهَا مِنْ سَفِينَةِ نُوحٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ [الْأَعْرَاف: 11]، أَيْ خَلَقْنَا أَصْلَكُمْ وَهُوَ آدَمُ، قَالَ تَعَالَى: قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ [هود:

40] فَيَكُونُ الْإِنْزَالُ هُوَ الْإِهْبَاطُ قَالَ تَعَالَى: قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ [هود: 48]، فَهَذَانِ وَجْهَانِ حَسَنَانِ لِإِطْلَاقِ الْإِنْزَالِ، وَهُمَا أَحْسَنُ مِنْ تَأْوِيلِ الْمُفَسِّرِينَ"(ابن عاشور، 1984،ج22،ص332).

ثالثًا: التّتبّع السّياقي لأرض قوم نوح:

ثمّة مقاربة لتحديد مكان قوم نوح من القرآن الكريم وهي جديرة بالتّقصّي السّياقي، لذلك سنبدأ بها على نحو تنازلي في التّاريخ؛ فقوم الرسول محمد ﷺ يعرفون أماكن ثمود قوم النبي صالح طبقًا للآية: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾ (العنكبوت:38). والإشارة هنا من عائدية الضمير (لكم) قريش، ومساكنهم بقيت خاوية من بعدهم لم تسكن: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (النمل:53). فقرى ثمود كانت من القرى القائمة وليست من الحصيد: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (هود:100).

تشير الروايات إلى أنّ "قوم ثمود كانوا يتخذون من الجبال بيوتًا فارهين، وبلادهم لم تسكن من بعدهم، وهي من المعلوم عند قبائل العرب إلى الشمال من يثرب في منطقة (الحِجْر)" (مهران، د.ت، ج1، ص282). أمّا قوم عاد الأولى فقد كانوا يسكنون المكان نفسه، مسكن ثمود فيما بعد، وهذا مأخوذ من النص القرآني على لسان صالح نبي ثمود يذكر قومه المستخلفين من بعد عاد﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ (الأعراف: 74). وهنا لا بد للذين يخاطبهم النبي (صالح) من أنّهم يعرفون عادا الأولى وما جرى لهم، ويعرفون أنّهم خلفاؤهم في أرضهم، أما قوم (عاد) الأولى فقد كانوا مستخلفين بعد قوم نوح، وفي المكان نفسه فيما يظهر من الآيات: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:69). وثمّة إشارة عابرة نستشفها من أسماء مقدسات قوم نوح وهي: (وَدّ، سُواع، يَغُوث، يَعُوْق، نَسْر) فهي أسماء ذات صبغة لغويّة عربيّة أو ساميّة.

وبناءً على ما تقدّم فإنّ قوم نوح كانوا في المكان الجبلي ذاته الذي لم يحظَ باسم خاص، ثمّ بعد فناء القوم بالطُّوفان ومرور حقب زمنيّة طويلة ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا، وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ (الفرقان:37-38) جاء قوم آخرون(عاد) يستعمرون المكان الذي صار اسمه (إرم) الموصوفة بذات العماد، وما لبثوا أن دمرتهم الرّيح الصرصر المسخرة: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ (الأحقاف:

24-25). وقد بقيت المساكن وهلك القوم، ومن هنا فإنّ نظرةً سريعة على سورة الشّعراء كفيلة بأن تدلنا على أنّ بيئة القومين (عاد وثمود) بيئة واحدة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ... وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ... كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ...أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ (الشعراء:133-147) ولا عجب فقوم ثمود مستخلفون من بعد عاد في الأرض، وكذا فإّن قوم عاد كانوا مستخلفين بعد قوم نوح، وما دام أنّ أرض نوح -فيما يظهر لنا - معلومة فلماذا تغرق الجُزر التي في المحيطات البعيدة؟ ونوح لم يركب البحر ولم يعلم صناعة السّفن إلا حين صنعها بوحي ربانيّ قبل الطُّوفان بقوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ (المؤمنون:37).

وإلى هذا الحد نتوقف غير مهملين قصدية الخطاب القرآني وقرائنه التي تمحو كثيرا من التّصوّرات التي ربّما تكون غير صحيحة - من وجهة نظرنا - المتعلّقة بأحداث نبوة نوح التي فاضت بها السّياقات المتعددة في القرآن، ليكون السّياق القرآنيّ موجّهًا للتّاريخ وليس العكس.

خاتمة:

إنّ قصديّة الخطاب القرآنيّ عبر تتبع سياق الموضوع في القرآن كانت قادرةً - وفقًا لتقديرنا - على الإجابة عن الأسئلة الاستدلاليّة الكثيرة التي توزعت في طيّات هذه المقاربة وكان السؤال الأهم فيها متعلقًا بذريّة نوح و(ذريّة من حملنا مع نوح)، وجدليّة الاستدلال الافتراضي أنّ (ذريّة من حملنا مع نوح) تفيد أنّهم ذريّة نوح فقط؛ وذلك تلافيًا لوجود التّعارض مع قوله تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين)! فهذا التّلافي فيه تجاهل لخصائص التّركيب المتكرر مرتين (من حملنا مع نوح)، وقد ساهمت هذا المقاربة في الجمع بين الذريتين عبر قرائن نصيّة من سياقات متعددة تقود جميعها أنّ ذريّة نوح الناجية التي كُتب لها البقاء في سلالة الأنبياء من بعده كانت من جهة بناته فقط، وفي هذا الاستنتاج الذي يرفض المعلومات التّاريخية حول وجود (سام وحام ويافث) ويؤكد أنّ نوحًا كان له بنات تزوجهنّ أتباعه المؤمنون، فكانت الذريّة النّاتجة من هذا التّزاوج ينطبق عليها الوصف بـ (ذريّة من حملنا مع نوح) كما ينطبق عليها الوصف: (وجعلنا ذريته هم البّاقين)، وقد انتهت هذه المقاربة التداوليّة إلى عدد من الاستدلالات يمكن إجمالها بالآتي:

- كان المقصود بذريّة نوح ذرية بناته.
- كان المقصود بـ (ذريّة من حملنا مع نوح) ذريّة أتباعه المؤمنين الذين تزوجوا من بناته.
- وقع عذاب الطُّوفان على قوم نوح خاصّة، دون غيرهم من الأقوام إذا افترضنا أنّهم موجودون.
- كانت الأرض –التي طلب نوح من ربه ألا يبقي عليها ديّارًا– هي أرض قومه حصريًّا، وليس الكرة الأرضيّة.
- كان مقصود قوله (من كلّ زوجين اثنين) هي أزواج الأنعام الأربع.

المصادر والمراجع

أدراوي، العياشي (2011). الاستلزام الحواري في التداول اللساني من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، *منشورات الاختلاف*، دار الأمان الرباط.

ألوسي، شهاب الدين محمود (1415هـ). *رَوح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت.

الأنصاري، ابن هشام (2000). *مغني اللبيب*، تحقيق: محمد عبد اللطيف الخطيب، الكويت، ط1.

البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود (14420هـ). *معالم التنزيل في تفسير القرآن*، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي –بيروت، ط1.

بودرع، عبد الرحمن (2006). *منهج السّياق في فهم النّص*، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، قطر.

تاج الدين، المصطفى (1999). *النّص القرآني ومشكل التأويل*، إسلامية المعرفة، ع14.

الجرجاني، عبد القاهر (2008). *دَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر*، دراسة وتحقيق: وَليد الحُسَيْن وإياد القيسي، مجلة الحكمة، ب ريطانيا، ط1.

الحسني، ابن عجيبة (2002). *البحر المديد في تفسير القرآن المجيد*، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2.

الحنبلي، مجير الدين بن محمد العليمي المقدسي (2009). *فتح الرحمن في تفسير القرآن*، تحقيق: نور الدين طالب، دار النوادر، إصدَارات وزَارة الأوقاف والشُؤُون الإسلامِيّة، ط1.

حوّى، سعيد (1424هـ). *الأساس في التفسير*، دار السلام، القاهرة، ط 6.

الذنيبات، فايز مد الله (2017). ثنائية الدخول والخروج في سورة الإسراء دراسة تحليلية لتداعى المعاني وانسجامها، *مجلة جامعة أم القرى*، العدد التاسع عشر، شعبان.

الرّازيّ، أحمد بن فارس (1979)، معجم *مقاييس اللغة*، تحقيق: عبد السّلام هارون، دار الفكر.

رضا، محمد رشيد (1990). *تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)*، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (دط).

الزجاج، إبراهيم بن السري (1988). معاني القرآن، تحقيق: عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط1.

الزحيلي، وهبة (1991). *التفسير المنير*، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1.

الزليطني، محمد لطفي (2013). نحو منهج تداولي في تحليل الخطاب الأدبي، *مجلة الدراسات اللغويّة*، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميّة، مجلد (15)، عدد (3).

أبو سعدة، عبد الرؤوف (1994). *العلم الأعجمي في القرآن مفسرا في القرآن*، دار الهلال، ط1.

أبو السعود، محمد بن مصطفى العمادي(دت). *إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم*، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (دط).

ابن سلام، يحيى (2004). *تفسير يحيى بن سلام*، تحقيق: هند شلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

السليفاني، فيان رمضان، وعبد العزيز محمد(2020). القصديّة التّداوليّة في القرآن الكريم، بحث في *المجلة الدولية للآداب واللغات*، جامعة البصرة، عدد1– مجلد2.

الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس (2006). *تفسير الإمام الشافعي*، تحقيق ودراسة: أحمد الفرَّان، دار التدمرية – المملكة العربية السعودية، ط1.

شويحط، إبراهيم أحمد، ومرعي، عبد القادر (2016). ف ضّ الشّراكة المفاهيميّة بين النّص والخطاب، مجلة *دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعيّة*، الجامعة الأردنيّة، مجلد 43، ملحق4.

صحراوي، مسعود (2005). *التداوليّة عند العلماء العرب، دراسة دراسة تداوليّة لظاهرة "الأفعال الكلاميّة" في التراث اللساني العربي*، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت.

الصعيدي، عبد المتعال (2005). بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب.

الصنعاني، محمد بن إسماعيل(1409هـ). *حاشية الصنعاني على إحكام الأحكام على شرح عمدة الأحكام*، المكتبة السلفية، ط2.

الطبري، محمد بن جرير(د.ت). *جامع البيان*، تحقيق محمود شاكر، دار التربية والتراث، مكة المكرمة، (دط).

ابن عاشور، محمد الطاهر (1984). *التحرير والتنوير*، الدار التونسية للنشر، تونس.

العاني، عبد القادر السّيد (1965). *بيان المعاني*، مطبعة الترقي، دمشق، ط1.

عبد الرحمن، طه (2012) *اللسان والميزان*، المركز الثقافي العربي، الدّار البيضاء، بيروت، ط 3.

العثيمين، محمد بن صالح (1436هـ). *تفسير القرآن الكريم*، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، المملكة العربية السعودية، ط1.

العكبري، عبد الله بن الحسين (د.ت). *التبيان في إعراب القرآن*، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه، (دط).

الفراء، يحيى بن زياد (د.ت). *معاني القرآن*، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي وآخرين، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط1.

القاسمي، جمال الدين (1418). *محاسن التأويل*، تحقيق: محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

القرطبي، أبو عبد الله (1964). *الجامع لأحكام القرآن*، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2.

القِنَّوجي، أبو الطيب محمد صديق خان (1992). *فتحُ البيان في مقاصد القرآن*، مراجعه: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا، بَيروت.

القيرواني، أبو الحسن المُجَاشِعِي (2007). *النكت في القرآن الكريم*، دراسة وتحقيق: عبد الله عبد القادر الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

ابن قيم الجوزية (د.ت). *بدائع الفوائد*، تحقيق: علي بن محمد العمران، مجمع الفقه الإسلامي، جدة.

الكرماني، أبو القاسم (د.ت)، *لباب التفاسير*، تحقيق: أربع رسائل دكتوراة في جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض.

لحلوحي، فهيمة (2012). علم النّص: تحديات في دلالة النّص وتداوله، *مجلة كلية الآداب واللغات*، جامعة محمد خير- بسكرة- الجزائر، العددان (10، 11).

الماتريدي، أبو منصور (2005). *تأويلات أهل السنة*، تحقيق: مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

المراغي، أحمد بن مصطفى (1946). *تفسير المراغي*، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط1.

مهران، محمد بيومي (د.ت). *دراسات تاريخية من القرآن الكريم*، دار النهضة العربية، بيروت، ط2.

الواحدي، أبو الحسن النيسابوري(1415هـ). *الوجيز في تفسير الكتاب العزيز*، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الدّار الشامية، دمشق، بيروت، ط1.